الباب الثامن

فى ترجمة شيخه فى الطريق وهو الشيخ الامام العالم العلامة الهمام العارف الكبير المحقق الفرد الشهير بقية السلف وحجة الله على الخلف سيدى محمد بن المفضل بن ابراهيم وبهذا عرفت عائلته أولاد ابن ابراهيم ولذلك يكتب بالالف ولد رضى الله عنه بفاس وحفظ القرآن العظيم على كبر لأنه لم يتوجه لحفظه إلا بعد البلوغ ثم شرع فى طلب العلم واعتنى بحفظ المتون فحفظ مختصر خليل وتحفة ابن عاصم والفية ابن مالك والأجرومية وأخذ العلم عن جماعة علماء فاس فى وقته ثم بعد الانتهاء من الطلب اشتغل بالتدريس فى جامع القرويين نحو أربعة أعوام ثم انتسب ودخل فى طريق أهل الله فسلكها على قدم التجريد والمجاهدة التى انقطع نظيرها منذ قرون وكان السبب فى أخذه الطريق رفيقه فى الطلب الفقيه الامام العلامة الشريف أبو العباس سيدى احمد ابن الخياط فانه أخذ عن الشيخ العارف بالله سيدى عبد الواحد بنانى ثم دعاه إلى الأخذ عنه ففعل وتلقى منه ورد الطريقة الشاذلية الدرقاوية فطلب منهما الشيخ الحضور مع الفقراء فجعلا يترددان اليه وعليهما حلة العلماء المعروفة بفاس والمغرب فصار الشيخ يجردهما من ذلك بالتدريج الى أن خرجا عن جميع العوائد والمالوفات ثم لبسا الخشن من الثياب بل لبسا الخيش وشدا فى وسطهما الحبل وانقطعا للمجاهدة وخرق العوائد والذكر جهرا بشوارع فاس التى كانا يمران فيها بهيأة العلماء مع ارتكاب كل ما يشق على النفس وترك الشهوات وتعمير الوقت بأنواع الطاعات ومكثا على هذا الحال ست سنين مات فى انتهائها شيخهما سيدى عبد الواحد بنانى رضى الله عنه فجددا الأخذ عن أخيه فى الشيخ سيدى الحاج أحمد ربيع بوصاية من شيخهما واستمرا معه على حالهما الى أن دخلا معه السجن فى جماعة من الفقراء على يد قاضى فاس عمر الرنده وذلك بوشاية الفقيه الجامد محمد بن المدنى كنون فانه هو الذى طلب من القاضى

ان يأمرهما بالرجوع الى التدريس والاشتغال بالعلم وترك ما هم فيه من التجريد والمجاهدة للنفس وكان الباعث له على ذلك حقده على أبى العباس ابن الخياط اذ كان من أنجب تلامذته وألزمهم لدروسه وخدمته فلما دخل فى الطريق انقطع عن درسه فعاتبه يوما وقال له كنت أظن أنك لا تقدم على شىء كيفما كان الا بعد مشورتى فاذا بك قدمت على هذا الأمر بغير علمى فلما لم ينجع فيه عقابه وشى به الى القاضى فأمرهما بترك ذلك والرجوع إلى تدريس العلم فامتنعا فأدخلهما وشيخهما وجماعته الى السجن فمكثوا فيه ثلاثة أشهر هدى الله فيها على يدهم من كان بالسجن من العصاة وتاركى الصلاة وحصل لهم خير جسيم ولما مرت المدة المذكورة أخرجهم القاضى وألزم المذكورين بالرجوع الى التدريس أيضا فاما ابن الخياط فرجع اليه بأمر شيخه وأما المترجم فاستمر على تجريده وعبادته وانقطاعه فذهب الى بيت كان له بالمدرسة البوعنانية وأقبل على العبادة وتفرغ لها فكان ورده عشرة أحزاب من القرآن العظيم خصه بها شيخه مع ورد الطريقة ومكث خمس سنين صائما يفطر على تمرة واحدة ويتسحر بزبيبة واحدة وكان الباعث له على ذلك انه كان ينسخ شرح الشمائل فمر به حديث كل عمل ابن آدم له الا الصيام فهو لى وأنا أجزى به يترك طعامه وشرابه من أجلى فقال كيف يقول الحق هذا وأنا أفطر فشرع فى الصيام على الصفة المذكورة وكان مع ذلك يذهب كل ليلة الى مراحيض المساجد والمدارس فيغسلها وينظفها خدمة للمسلمين وهضما لنفسه فاثر ذلك فى جسده فمرض مدة طويلة ذهبت فيها احدى عينيه وكان جنى ضربه فيها أيام غسله لتلك المراحيض فلما شفاه الله تعالى باع ذلك البيت وجميع ما فيه من الكتب وغيرها وقد وهب ثمن ذلك لشيخه ثم لزم باب الزاوية فكان ينام خارج الباب مدة طويلة الى أن اذنت له زوجة الشيخ سيدى محمد ايوب صاحب الزاوية المدفون بها وهو شيخ شيخه فدخلها وعمرها بذكر الله تعالى وتربية الفقراء والمريدين الى ان مات بها .

ولما مات شيخه الثانى سيدى أحمد ربيع شرع الناس فى الأخـذ عنه والانتساب إليه فاشتهر أمره بفاس وأقبل الناس عليه بالأخذ والتلق مع المحبة والتعظيم والاعتقاد والاحترام وامتلأت عليه الزاوية بالفقراء المتجردين من أهل فاس والغرباء فكان يربيهم على طريقته فى الجدوالاجتهاد والصيام والقيام ومحاربة الهوى ومخالفة النفس فى جميع ما تهوى حتى كان لايتركهم يتناولون الطعام إلا بعد تغير طعمه وذهاب لذته بان يتركه نحو اليومين والثلاثة وربما خلط لونين مختلفى الطعم والمذاق فى ءانية واحدة وأحيانا يغمر الطعام بالماء حتى لا تبقى فيه لذة يتمتع بها وتدعو الى الاكثار منه وملء البطن الذى ما ملأ ابن ءادم وعاء شراً منه وغضب مرة من فقير له أتاه بطعام جيد فرده عليه وانتهره وقال له نحن عندكم بمنزلة المرحاض كل من عنده فضلة يصبها فيه .

وكانت كتبه التى يقرأها مع الفقراء كتاب تاج العروس والتنوير فى إسقاط التدبير للتاج ابن عطاء الله رضى الله عنه وكذلك حكمه بشرح ابن عجيبة وكان يقرأ لخاصته تفسير الجلالين كلما ختمه افتتحه مرة أخرى بقراءة تلميذه الشريف نور الدين .

وكان له اعتناء عظيم بذكر اسمه تعالى اللطيف مع الفقراء بالزاوية مساء بين العشاءين وبضريح مولانا إدريس رضى الله عنه صباحا وكان يقصد بذلك حصول اللطف بالأمة لما كان يتوقع من نزول البلاء وحلول النقم باحتلال الكفار الذى هو أعظم نقمة وشر بلية ورزية فكان ذلك حاصلا مدة حياته ولم يقع الاحتلال إلا بعد وفاته .

وكان يلبس ثلاثة أثواب لا يزيد عليها صيفا وشتاء وهى قميص وقشابة صوف ومرقعة كان لبسها باذن شيخه وأخبره شيخه أنه أمر بها باذن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت لباسه الى أن لزم الفراش وانتقل بعده الى جوار ربه .

وكان فى بداية مشيخته يلف على يده اليمنى خرقة من الخيش لئلايصيب يده شفتا من يقبلها من المردان .

وكان فى ءاخر أيامه لا يتناول من الطعام الا شربة لبن فى الصباح وأخرى فى المساء وكان لا ينام الليل أصلا بل يستغرقه بالصلاة وذكر اسم الله اللطيف ولم يتزوج قط ولا مالت نفسه اليه ولا إلى غيره من الشهوات وقد عرض عليه مرة بعض الوجهاء والأعيان أن يزوجه أو يشترى له جاريتين ويسكنه داراً وينفق عليه الى أن يموت فامتنع وقال انى بعت نفسى لله تعالى فلم يبق لى فيها رجوع .

وكان عظيم الهيبة شديد الشكيمة لا يستطيع أحد مواجهته بخلاف ماهو فيه من الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى والاعراض عن الدنيا وما يؤول اليها حتى إن من عرض عليه مسألة الزواج وهو من أكابر العلماء الأشراف أعيان أهل المغرب لم يستطع مواجهته بذلك وانما راسله به مع تلميذه الشريف نور الدين وكان يخدمه ويدخل عليه ويذكر عنده بأمره ويقرأ عليه الكتب التى يريد سماعها .

وقد حدثنى أنه خدمه ثمان سنين فما رآه ضحك فيها وانبسط إلا مرتين إحداهما أنه كان ببيت بعض الاخوان فسأله هل عندك كتاب قال نعم عندى المستطرف فأتاه به فدفعه إلى مولانا الشيخ الوالد وقال افتحه فما وقع بصرك عليه فاقرأه ففعل فوافق الكتابة فى الفالوذج فصار يقرأ وهو يضحك وحصل له سرور وانبساط وقال ما نحن إلا بشر ومرة أخرى فى بيت بعض الفقراء أيضاً قال وما عداهما لم أره ضاحكا قط فى خلال هذه المدة .

وكان يحب الخمول والتواضع والسكون تحت مجارى الأقدار فلايتظاهر بكرامة ولا يفوه بدعوى إلا إذا غلبه الحال وغاب عن حسه وأظهر الله على يديه مالا اختيار له فيه كما حدثنى الشريف المذكور وغيره قالوا كان الشيخ

أواخر عمره فى غرفته بالزاوية وحده فنادى بأعلى صوته يا نور الدين فلما دخل عليه وجده فى حال عظيمة فقال له اقاب الاعلى أسفل والأسفل أعلى ولم يزد على ذلك ثم رجع إلى حسه وبعد هذه الواقعة صار يظهر انعكاس الأحوال فى الدنيا وانقلبت وتبدلت إلى أن صار الأعلى أسفل والأسفل أعلى ووصل إلى ما هو عليه الآن نسأل الله اللطف والعافية بمنه وفضله وجوده ورحمته الواسعة وشفاعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان فى ءاخر عمره أقعد فكان إذا اضطجع لا يستطيع الجلوس بنفسه بل يجلسه بعض الفقراء الملازمين لخدمته ولا يجلسه إلا بتعب لانه كان بادنا عظيم الجثة ومع ذلك فكان اذا أخذه الحال يجلس وحده ويأخذ مخدة عظيمة لا يستطيع حملها إلا الصحيح القوى فيصير يشير بها بيديه مرارا كانه يريد أن يضرب بها ثم يردها اليه مراراً وأخيراً يرمى بها أمامه الى آخر الغرفة ثم يزحف اليها ويرجع إلى محله يفعل كذلك مراراً الى أن يذهب عنه الحال أو يدخل عليه الخادم فيصحو ويرجع إلى حاله وفى يوم دخل عليه بعض الفقراء وهو كذلك فقال له مالك يا سيدى فقال لاشىء غير أنى كنت مع ابن الصديق بطنجة نقضى بعض المئارب .

وكان معتقداً محبوباً من الخاصة والعامة يبالغ الكل فى تعظيمه والثناء عليه قد اجتمعت الالسن على ذلك من غير منازع مع نفوره من الناس واعراضه عنهم وفراره من مخالطتهم وكان الكبراء من أهل فاس أعيانها وعلمائها وشيوخها يقصدونه للزيارة والتبرك فكان يقابلهم تارة ويردهم أخرى فيجلسون بالزاوية أمام غرفته وهم يسمعون كلامه فلا يجترىء أحدمنهم على الدخول عليه ثم لا يحصل لهم تأثر ولا نفور من ذلك بل يقابلونه بالرضى والتسليم ويعودون لزيارته وقد يتردد الواحد منهم مرارا متكررة فلا يقابله فى شىء منها وهو يعيد الكرة الى أن يسعفه بمرغوبه وكثيراً ما كان يفعل هذا مع أهل الظهور والجاه من العلماء والأعيان

يريد ان يصرفهم بذلك عنه فلا ينصرفون .
وابتلى ءاخر عمره بالمرض المزمن فأقعد وأضر وذهبت عينه الاخرى واستمر ملقى على قفاه مدة طويلة حتى سكنت الفيران تحت فراشه وهو فى كل ذلك صابر محتسب راض بحكم مولاه بل غائب عن حسه بحلاوة مشاهدته إلى أن انتقل الى جواره ومحل رضوانه يوم الخميس فاتح رجب سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف ودفن بالزاوية المذكورة رحمه الله تعالى ورضى عنه وعنا به ونفعنا بمحبته وبركاته آمين .

فصـــــل

أما الشيخان اللذان أخذ عنهما فالأول هو الشيخ العارف المحقق المرشد أبو محمد سيدى عبد الواحد بن بدوى بنانى ولد بفاس وكان فى بدايته مشتغلا بالتجارة فحفته العناية الالهية وجذبته إلى طريق أهل الله فدخل فيها على يد شيخه العارف سيدى محمد بن الغالى أيوب ورافقه فى ذلك شقيقه فحصل لهما بعد الأخذ نفور شديد من الدنيا وإقبال عظيم على الله تعالى وفنيا فى محبة شيخهما وخطر ببالهما ذات ليلة أن يخرجا له عن جميع ما بيدهما من الدنيا ثم عزما عليه وخافا من تغيير ذلك الوارد فأسرعا بالليل إلى شيخهما وخرجا له عما يمتلكان فنالا مرادهما من الله تعالى وحصل للمترجم الفتح الالهى والفناء فى الذات العلية وصار من جلة أصحاب شيخه بل كان هو الوارث لمقامه وحاله فلما توفى شيخه ظهر هو بمظهره وانتصب فى محله واجتمع عليه الفقراء فصار يذكرهم ويذاكرهم .
وكان له دكان بسوق العطارين يبيع فيه الجوهر والمرجان والطيب ونحوه فى حال مشيخته وتربيته للمريدين قياما بالشريعة وستراً للحال وتعففا عن الخلق فكان بعض الجهلة يطعن فى مشيخته من أجل ذلك حسداً وجهلا كما هى سنة الله تعالى فى خلقه ولا سيما مع أوليائه وأصفيائه .

وحدث تلميذه المترجم قبله سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه قال سمعته يقول رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى من رآك فقد رآنى ومن قبل يدك فقد قبل يدى وكان تلامذته والعارفون به يثنون عليه كثيراً ويصفونه بعلو المقام فى المعرفة ورسوخ القدم فى الولاية ويدل لذلك قصيدته التائية التى أنشأها وهو أمى لم يحضر مجلساً من العلم وفيها يصف نفسه بالمعرفة ويذكر ما حصل له من الفناء وهى قوله :

ولما فنى عنى فنائى فلم ازل أشاهد معنى الحق فى كل وجهة
وزال وجودى عن وجودى وهل لمن فنى عن فنا أهل الفنا من بقية
ومذ نظرت عينى الوجود توهما شهدت بعين الفكر سر حقيقتى
وكنت رهينا فى سجون عوالمى فصرت خبيرا بالعلوم الغريبة
وأخبرنى عنى غرامى بأننى غريق بحار الوصل فى عين وحدتى
وسرى روى عنى وكنت حديثه وبالحق حققت معالم جملتى
وأنشق من روحى نسيم حقائقى ومتعت طرفى فى محاسن بهجتى
وخمرى بدا منى وكنت ختامه وأرشف من ثغر الكؤوس مدامتى
وعربدت من سكرى هياما لأننى شهدت بهائى فى صفاء أنيتى
وخمرنى خمرى وراح براحتى وصرفى ومزجى مع تهتك نشوتى
وسكرى وصحوى والفناء مع البقا وشربى وريى واحتفالى برؤيتى
ومنها بدا كلى وبعضى وجملتى وحسى ومعنائى وجمعى وفرقتى
وراحى وريحانى وروحى وراحتى ونفسى وأنفاسى ولبى ومهجتى
شربت صفاها من أهيل مودتى قديما فصار الشرب دينى وملتى
وغيبنى عنى شهودى لحسنها وشدة أفراحى بوصل الأحبة
ولاح لسرى من معانى جمالها فعاينتها عينى وبعضى وجملتى
وهام لها قلبى وسرى بها اهتدى اليهـا وقرت بالمحاسن مقلتى
وصرت محل السر منها بسرها وصرت بها سرا بغير أنية

obeikandl.com

وبحري در ليس يدرك وصفه ... وبرى زهر نشره طيب نفحتى
وخيمت فى برى وطاب لى المنا ... وخاضت بحار العشق منى مطيتى
وفرقت جمعى واستبانت معالمى ... وحددت طرفى لم أجد غير وحدتى
فها أنا ما بين البحور وديعة ... أوفى حقوقا حقها بالسوية
ولى فى الهوى علم تضوع نشره ... وراق شرابى من كؤوس الأحبة
أبيح لى التعبير فى مذهب الهوى ... ومن ذا من العشاق يبلغ رتبتى
فلا وصل الا من تعطف وصلها ... ولاقرب الا إن حبتك بنظرة
وان قصدت جادت ببعض جمالها ... وان أظهرت بعداً لفقد الأذلة
فان شئت أن تحظى بطلعة حسنها ... فخيم ولاتسأم بباب الأحبة
وكن ذليلا واصبر على ألم الهوى ... وواصل شراب الحب فى كل لحظة
وجرد سيوف العزم فى طلب اللقا ... ومزق ثياب الوهم عنك بسرعة
وحى حمى الخمار وانزل بحيه ... وعفر خدودا فى ثراه بذلة
ولاحظ رضاه فى المهمات كلها ... وكن كئيبا ترجو الشفاء لعلة
لكى تسقى من خمر الوصال صفاءه ... وتجنى ثمار القرب من كل ذرة
وتفنى فناء فى فناء عن الفنا ... وتبقى بها معنى بغير هوية
وتحيى حياة لا ترى الموت بعدها ... منعم فكر فى سرور ورفعة
هنيئا لمن أضحى يراها بطرفها ... وهام بها فيها بغير معية
وعاينها عينا وغيراً ولا سوى ... ولاثم غير فى ظهور الحقيقة
وصار بها يدعو العباد لربهم ... ويسقى مدام الحب من غير راحة
مدام تسلى الهم وهى بدنها ... وتشفى سقيم القلب من كل علة
مدام لها معنى لطيف لمن درى ... قديم به قامت عوالم حكمة
مدام بها هام الوجود بأسره ... وهامت بها الأرواح لما تجلت
مدام لها نور بهى لدى الورى ... يلوح سناها للقلوب السليمة
تنوعت الأشياء منها فما أرى ... سوى نورها الوضاح فى كل وجهة

obeikandl.com

تشعشع منها الكل وهى حياته ... ومن حسنها كل البدور استمدت
فريدة حسن لاح نور جمالها ... فخرت لها الاشياء حين تبدت
وغنت وقالت فى لذيذ خطابها ... أنا الحسن والاحسان وصفى وشيمتى
تبدى جمالى فى المظاهر كلها ... وأبدعت كل الكائنات بقدرتى
وصنت جمالى بالجلال وإنما ... جلالى جمالى والتستر حكمتى
وأظهرت حتى لا يرى ظاهر معى ... وأبطنت حقا فى سرادق عزتى

توفى رضى الله عنه سنة خمس وثمانين ومائتين وألف .

وأما الثانى فهو الشيخ العارف القدوة المسلك المربى سيدى أحمد بن محمد وبيع الفاسى من عائلة معروفة بفاس أخذ عن العارف سيدى محمد بن الغالى أيوب ثم بعده أتم على أخيه فى الشيخ سيدى عبد الواحد بنانى ثم بعد وفاته ورث حاله وقام فى التربية والتسليك مقامه وكان ذلك باشارة من شيخه فاجتمع عليه الفقراء من أصحاب شيخه وغيرهم وانتفعوا به النفع العظيم وتخرجوا على يديه فى طريق الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى وكان مقلا من الدنيا زاهداً فيها راغباً فيما عند الله يحترف حرفة اللجم فيصنعها ويبيعها ويأكل من كديده وكان مع فقره وقلة ذات يده كثير البر والصدقة والاكرام للفقراء يطعمهم وينفق عليهم ولا يأخذ من أحد منهم وكان ذا تواضع وسمت وأخلاق حسنة وهدى جميل وأوصاف حميدة محباً للعلماء وآل البيت شديد التعظيم لهم والادب معهم له يد فى التصوف ولسان فى المذاكرة كثير الذكر لا يكاد يفتر لسانه عنه حتى عند النزع وخروج الروح يميل إلى الخمول ولا يظهر مظهر الفخر والدعوى وربما حدث بعض الخواص ببعض ما كوشف به كما أخبر تلميذه أبا العباس سيدى أحمد ابن الخياط أنه أتاه من الغيب اربعة رجال على شكل واحد وصورة واحدة لهم أنوار خارقة فملأوا بيته نوراً وقالوا جئنا إليك لنزورك ونطلب منك صالح الدعاء وكان اسم أحدهم الطيب ابن الطيب

obeikandl.com

وأخبر مرة شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتانى انه خرج مرة لجنازة بعض الفقراء فلما سووا عليه التراب كشف لى عنه فصرت أراه فجعلت أغمض عينى كى يحتجب عنى فلم يحتجب ترجمه شيخنا المذكور فى سلوة الانفاس وذكر أنه كان يعوده أيام مرض موته فيجده فى غاية الثبات واليقين وأنفاسه متصاعدة بالذكر قال ودخلت عليه مرة بعد ما سقط لسانه فصار يشير بسبابته كانه يقول لا إله إلا الله قال وتوفى صبيحة يوم الاحد تاسع محرم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف .

obeikandl.com